الواقع والمأمول للأدب الإسلامي

إعـــداد

د/ صابر أحمد عبد الحافظ إبراهيم
الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية
جامعة الأزهر بأسيوط

١- تأثر الأدب العربي الحديث بالمذاهب الأدبية الغربية

لاشك أن الوضع الذي آل إليه الأدب العربي في أواخر العصر العثماني، كان يشير إلى حالة من الجمود والرداءة لم يصل إليها في أي عصر من العصور السابقة، سواء على مستوى الموضوع أو على صعيد الشكل، وهو ما جعل حركة النهضة العربية الحديثة تضعه في حسبانها، بوصفه غذاء الروح والعقل والوجدان، وكانت طفرة الشعر على يد "البارودي"، وتطور النثر على يد المرصفي ومحمد عبده، والنديم، وشكيب أرسلان ومدرسة البيان، مرحلة جديدة أعطت للأدب العربي الحديث دفعة إلى الأمام وأخرجته من واقع الجمود والرداءة إلى أفق آخر أكثر نضارة وإشراقاً وتطوراً أعاد مجد الأدب في أزهى عصوره القديمة، وفتح الباب، مع تطور الصحافة والتعليم والوعي السياسي والقومي ومواجهة الغزاة المستعمرين في مصر وأقطار عربية أخرى، إلى عالم رحب من التجويد الأدبي موضوعياً وفنياً، فضلاً عن التأسيس لأجناس أدبية جديدة عرفها أدبنا الحديث بحكم الاحتكاك بالغرب سواء عن طريق الترجمة، أو طريق اللغات الأصلية وخاصة الفرنسية والإنجليزية التي كان يقرأ بهما ويكتب عدد غير قليل ممن تعلموا في الغرب، أو في داخل الوطن العربي.

تقليد مباشر:

بيد أن هذا التطور الجديد، الذي كان حريّاً أن يسير في اتجاه إيجابي يؤصل للهوية العربية الإسلامية، ويعبّر عن طبيعتها وتميّزها، ويتحرك بتصوّرها ورؤيتها، انحرف في بعض جوانبه إلى التعبير من خلال التصوّر الأدبي الغربي ورؤيته للحياة والإنسان والكون فضلاً عن العقيدة.. وراح نفر من أدباء الأمة ، وخاصة من غير المسلمين، يؤثرون التقليد المباشر، للأدب الغربي ويدعون إليه، ويقدمون نماذج تطبيقية تعبّر عن الوجه العربي الإسلامي، وامتدت هذه النماذج لتشمل الفكرة والسلوك، العقيدة والمنهج، ولا تجد غضاضة في ذلك بحكم عوامل سياسية وثقافية واجتماعية طرأت على المجتمعات العربية، وخاصة في الشام ومصر.

هيمنة التغريب:

ومع ذلك، فقد كانت هناك عناصر مقاومة لمواجهة "تغريب" الأدب العربي، استطاعت في حدود إمكاناتها المتاحة، أن تواجه بالفكر والتطبيق تيار التغريب، والمؤثرات التي استهدفت هوية الأمة وعقيدتها وتراثها، وفي منتصف القرن العشرين حتى نهايته، كان تيار "التغريب" قد استطاع الهيمنة على الواقع الثقافي بعامة، والأدبي بخاصة. وهنا كانت الدعوة إلى "أدب إسلامي" مرحلة جديدة، في المقاومة والتأصيل، وتجديد الأدب العربي، وبالتالي آداب الشعوب الإسلامية الناطقة بغير العربية، وللوقوف في وجه "التغريب" الذي اشتد تياره بصورة غير مسبوقة، لدرجة أن صار بعض الأدباء العرب، يعدّ نفسه امتداداً لبعض الأدباء الغربيّن، أو نسخة مكررة منهم.

اعتراض مهم:

وقد جوبهت الدعوة إلى "أدب إسلامي" في هذا السياق باعتراض مهم، فضلاً عن اعتراضات أخرى، وشبهات عديدة تولى الردّ عليها "عبد القدوس أبو صالح" في كتاب له يحمل عنوان "شبهات حول الأدب الإسلامي" بيد أن الاعتراض المهم يزعم أن الدعوة إلى "أدب إسلامي" سوف تدفع الأدب العربي إلى آفاق مذهبية وطائفية، بما يترتب على ذلك من تمزيق لهوية الأمة، وظهور مذهبيات وطائفيات تصبّ في خانة سلبية على وجود الأمة وتصوراتها وواقعها.

وقد ردّ على ذلك "عبد الباسط بدر" في نقطتين:

الأولى: أن الأدب العربي، قد توجه بالفعل، ومنذ نصف قرن تقريباً إلى الآفاق المذهبية والطائفية، قبل أن تظهر الدعوة إلى الأدب الإسلامي بوقت بعيد، ولم ينتظر أن يدفعه الأدب الإسلامي أو الأدباء الإسلاميون إلى هذا الميدان.

الأخرى: أن الأدب الإسلامي بحكم خصائصه وطبيعته وجوهره الإنساني، يهدف إلى وقف تشرذم الأدب العرب وتفتته وراء المذاهب المنحرفة والتصورات الدخيلة والانتماءات الطائفية الضيقة.. وهو يهدف في كل الأحوال إلى التوكيد على الرابطة التاريخية والروحية بين الأمة وأبنائها جميعاً، فضلاً عن العلاقة الوثيقة بين الأدب والعقيدة الإسلامية التي تسع الجميع.

والمحزن حقاً هو أن الأدب العربي اليوم قد توزع وراء العقائد المنحرفة، واستقطبته المذاهب الفكرية والفلسفية العبثية أو التي لا تعبّر عن طبيعة الأمة وطموحاتها[1]، دون أن يكون له مذهب واضح المعالم منهجياً ونقدياً.

ويمكننا أن نرصد الآثار السلبية التي ظهرت في أدبنا العربي الحديث في النقاط التالية:

١. الخصومة بين الأدب والدين.
٢. آثار صنعتها بعض التنظيمات السرّية بهدف خدمة الغزاة وتفتيت الأمة.
٣. آثار صنعها أدباء غير إسلاميين.
٤. التبشير أو التنصير والاستشراق.
٥. المذاهب الأدبية الغربية.
٦. الحداثة.

بالطبع هناك آثار أخرى عديدة، ولكننا ذكرنا أهمها، وسوف نتوقف عند كل منها وقفة موجزة، لنبين طبيعة هذا التأثير.. مع إيماننا الذي لا يتزعزع بأن التأثير والتأثر بين الآداب المختلفة هو أمر طبيعي، لإثراء التجربة الأدبية عند الطرفين، وقد اكتسبنا بعض الإيجابيات من احتكاكنا الثقافي والأدبي بالغرب، فقد أصّلنا لأجناس أو فنون أدبية جديدة في أدبنا الحديث، لم يكن لها وجود في أدبنا العربي القديم، أو لم

[1] عبد الباسط بدر، مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي، ص٩٥.

تكن موضع اهتمام وتأثير الرواية، المقالة، الخاطرة، أدب الأطفال، الكتابة الصحفية والحوار، الريبورتاج، التحقيق...).

بيد أن الخطورة، هو التأثر السلبي الذي يجعل المتأثر ينقل نقلاً غير واعٍ، أو بقصد ووعي تصورات الآخر وأفكاره ورؤاه، وفي الثوب الذي يصممه هو أن يبتكره فهذه التصورات والأفكار والرؤى، ليست متفقة بالضرورة مع عقيدتنا وثقافتنا، بل قد تكون مصادمة لها ومخربة، وهو ما يجعل من التأمل والتمحيص والتدقيق والاستيعاب والهضم مسائل ضرورية عند التعامل مع ما لدى الآخر، هو ما أدركه نفرٌ من أدبائنا في مطالع القرن العشرين، وما لم يدركه نفرٌ آخر في أواخر القرن العشرين للأسف الشديد!.

خصومة بين الفن والتدين:

تأثر بعض الأدباء العرب بما عرف في أوربة بالخصومة بين الفن والدين، أو بين الأدب والدين، ورأوا أن العلاقة بين الطرفين علاقة تناقض، لا علاقة تواؤم وتكامل، وبناء عليه فقد سمحوا لأنفسهم أن يكتبوا أشعارهم ونثرهم، وفقاً لمنطلقات أخرى، لا علاقة لها بالدين، بل قد تتصادم معه، وتعاديه.

والمشكلة تكمن في أن القوم لم يدركوا أن ظروف المجتمع الغربي مع الكنيسة الكاثوليكية، تختلف عن طبيعة المجتمع الإسلامي مع عقيدته . فالكنيسة في أوربة قد مارست دوراً خطيراً فرض الوصاية على كل شيء في المجتمعات الغربية السياسة والثقافة والحكم والاقتصاد، وعن طريق صك الحرمان والغفران الذي تتمتع به، صارت هذه المجتمعات

خاضعة لها تماماً، وهو ما أدى إلى تحكّمها في كل شيء العلم والفن والأدب، لدرجة أن قامت بتأليف نظريات "علمية" عن الكوارث والأفلاك، وشكل الأرض وعمرها، وعمر الإنسان...الخ وألزمت الناس أن ذلك جزء من العقيدة يجب الإيمان به، ومن لم يؤمن به فهو كافر، وخارج على الله!

ولما قام العلم النظري التجريبي، القائم على البحث والاستقراء والتجربة (الذي ترجع جذوره إلى طرائق العلم الإسلامي ومناهجه في الأندلس كما قال "بريفولت") قامت قيامة الكنيسة، وراحت بفظاظة ووحشية تقتل العلماء وتحرّقهم، لأنهم قالوا بكروية الأرض، وأنها ليست مركز الكون، ونال كوبرنيكس وجاليلو على يديها ما يكفي لتكفير الناس من ذلك الشيطان وظلت الهوة تتسع بين الكنيسة والعلماء من ناحية، والعلم والدين من ناحية أخرى، حتى جاء "دارون" ووجه الضربة القاضية للكنيسة فلم يعد وجودها إلا لوناً من القصور الذاتي.

وتطورت العلاقة بين الكنيسة والعلماء والناس، وعادت الوثنية أو لون منها إلى حياة الناس، وتم الانحراف بالدين، وقامت محاولات لاقتناعه، وصارت الحقيقة لدى الكثيرين هي ما تدركه الحواس! ولأن الدين والله والعقيدة أمور لا تدركها الحواس، فقد تركها معظم الأوربيين.. كل ذلك بسبب المدلسين من رجال الكنيسة الذين استغفلوا الناس ردحاً طويلاً من الزمان باسم السماء.. فلم تعد وجوههم تتطلع إلى أعلى ، وإنما صارت

تنظر إلى أسفل.. إلى الطين.. إلى الوحل، الذي تسميه الواقع أو الذي تدركه الحواس!

وهنا نشأت المذاهب التي توجه سهامها إلى العقيدة وتنتقص منها وتزري برجال الدين، فظهر "فرويد" في حماة الجنس، وماركس في حماة الاقتصاد والحتمية التاريخية لصراع الطبقات، وظهر آخرون كل همهم التشنيع على العقيدة الدينية والزراية بها أو إهمالها على الأقل.

وكانت نكسة مخزية في عالم الإنسان وفي عالم الفنون[1].

ولهذا نشأ لون جديد من الأدب يغرق في تصوره لبشاعة رجال الدين وتصرفاتهم، ويفخر بالتحلل والانطلاق من إسار الدين ومثله وأخلاقه، ويعده صورة المتخلف والرجعية، وانهياراً للمعاني الحضارية الجديدة وحرباً على حرية الخلق والإبداع، وقيداً يغل من تحليق الأفكار في سماوات الإشراق والتعبير المطلق ، وكتب "هوجو" في روايته (أحدب نوتردام) عن القسّ الذي ينسى الله والترانيم والتبتل ويجري خلف فتاة غجرية فاتنة ويسلك كل السبل لنيلها! وكتب غيره عشرات الأقاصيص والروايات والمسرحيات حتى أصبح الرجل صاحب المسوح السوداء واللحية عنواناً للخسّة والنذالة ورفيقاً للشيطان!

---

[1] محمد قطب، منهج الفن الإسلامي، ص١١١-١١٣.

اقتفاء الأثر:

وللأسف، فقد اقتفى بعض أدبائنا آثار كتاب أوربة في تجاهلهم للعامل الديني الإيجابي، وفصلوا بين الفن والدين، وأعطوا لأبطال القصص الدينية الإسلامية السمات المعروفة في الأدب الأوربي نفسها. وظهر عالم الدين الإسلامي في أعمالنا القصصية رمزاً للبلاهة والسذاجة المفرطة، والقذارة والشعوذة والنفاق والشراهة والسلبية المشينة، فالشيخ "الشناوي" في رواية الأرض لعبد الرحمن الشرقاوي مثلاً، فقيه ريفي يلقي تهمة الكفر جزافاً، ويماليء الخونة والمستغلين، ويفهم الدين فهماً ضيقاً سقيماً. وأيضاً فالشيخ "الجنيدي" في رواية اللص والكلاب لنجيب محفوظ شارد عن العالم من حوله، غارق في أوراده وأذكاره، ومن حوله الصراع الاجتماعي العنيف والتغيرات الجذرية التي تهز المدينة هزاً شديداً، وهو وسط كل هذا يتطوح يمنة ويسرة، سابح في عالم صوفي لا يحترق بعذاب الناس من حوله!

إن التركيز على النماذج السيئة المنحرفة لعلماء الدين، وتجاهل المثل النيرة المشرقة، هو أثر من آثار الجري وراء المفاهيم الأوربية التي أعلنت الحرب على الكنيسة ورجالها... وإما جهل بالإسلام وحقائقه[1] وقد استغل صناع السينما هذه النماذج وأبرزوها في أفلامهم بصورة لافتة، بحيث لا تجد عالم الدين المسلم إلا شخصاً فصامياً نكداً، يقول ما لايفعل، أو يفعل ما يخالف قوله، وكأن القوم يقولون لنا: ها هو إسلامكم لا

(١) انظر: نجيب الكيلاني، "الإسلامية والمذاهب الأدبية"، ص٢٢-٢٥.

يصلح للحياة، بدليل أن علماءه أول من يخالفونه، وأول من لا يطبقون تعاليمه"[٢]

وفي العقود الأخيرة، وبعد ظهور بعض حالات العنف والعنف المضاد بين بعض الحركات الإسلامية وبعض الحكومات، راح نفر من الأدباء شعراء وكتاباً، يصورون الإسلام من خلال شخصيات في هذه الحركات تصويراً بشعاً، يجعل الإسلام صورة دميمة وقبيحة ومقززة، ومصدراً للقتل والشر واستباحة أموال الآخرين والتعصّب، وللأسف لم يقدموا نموذجاً واحداً أو صورة واحدة تكشف سماحة الإسلام وحبه للمسالمة والموادعة والتعاون والإخاء والتسامح[٣].

ويبدو لي أن "نجيب الكيلاني" أصاب كبد الحقيقة، عندما عبّر عن هذه المعركة المفتعلة بين الفن والدين الإسلامي على وجه الخصوص، بأنها معركة مريرة بين سيادة الدولار وسيادة الضمير، الدولار رمز الغرائز المنحرفة والتصورات العدوانية والاستغلال والانتهازية، والضمير رمز لسيادة كلمة الله وسيطرة العقيدة، وقيام مجتمع متآزر تسوده العدالة والحب والعفة والورع[٤].

ولاشك أن خصوم الأمة لم يغفلوا عن الكيد لها بكل وسيلة ممكنة، وتمثل هذا الكيد -بعيداً عن استخدام السلاح- باستخدام الفكر، وتجنيد الأتباع، والهجوم من الداخل على

(٢) للإنصاف توجد بعض النماذج السوية في بعض الأفلام.. ولكنها نادرة ولا يقاس عليها!

(٣) انظر على سبيل المثال: بعض روايات جميل عطية إبراهيم، ورءوف مسعد، والطاهر بن جلون، وآخرين.

(٤) انظر: الإسلامية والمذاهب الأدبية، ص٢٦.

عناصر القوة والتماسك والمنعة، ولا شيء أقوى في هذا المضمار من ضرب العقيدة أو الإيمان الذي يجعل صاحبه يقاوم، ويصرّ على حقه في التمسك بدينه ووطنه واستقلاله، وكانت التنظيمات السرّية هي الباب الخلفي الذي يلج منه خصوم الإسلام لهدم العقيدة تحت شعارات براقة وخادعة، بل إن لفظة "الاستعمار" نفسها، تعني "التعمير" و"البناء" و"العمران" و"الرخاء" وغيرها، مع أن الذين رفعوها شعاراً لهم دمّروا الشعوب التي استعمروها واستنزفوا خيراتها وثمراتها، وحوّلوها إلى سوق يبيعون فيه بضائعهم الجيدة والرديئة معاً، المادية والمعنوية جميعاً.

وكانت "الماسونية" من أبرز الحركات أو التنظيمات السريّة المخادعة والماكرة، التي دخلت إلى البلاد العربية تحت شعارات زائفة، واستقطبت بهذه الشعارات عدداً لابأس به من زعماء النهضة الحديثة، الذين تخلوا عنها بعد انكشاف حقيقتها الشريرة، ومنهم على سبيل المثال: جمال الدين الأفغاني، والإمام محمد عبده، وقد أغلقت محافلها رسمياً في عهد "جمال عبد الناصر" في مصر، ولكنها عادت الآن في ثوب آخر، وتحت مسميات جديدة مثل "الروتاري" و"الأونرهويل" و"الليونز" وغيرها.

تعتمد "الماسونية" على واجهات علنية في جمعيات ثقافية أو أندية اجتماعية أو جماعات أو أحزاب سياسية، ولكن تنظيماتها أو هياكلها التنظيمية الحقيقية تظل سراً ولا يعرفها كل أعضائها.. لأن هذه المعرفة قاصرة على الرءوس العليا.

مذكرة إلى مؤتمر الصلح:

وللأسف فقد ابتلي الأدب العربي بانضمام عدد من أدبائه المعروفين.. -معظمهم من الشوام غير المسلمين- إلى الماسونية ومحافلها . وقد كان هؤلاء الأدباء المتأثرين بالآداب الأوربية، ويعدّون في نظر كثير من الباحثين والدراسين مجّددين. ومن أطرف ما يروى في هذا السياق أن أحد المحافل أرسل مذكرة إلى مؤتمر الصلح الدولي الذي انعقد في أعقاب الحرب العالمية الأولى جاء فيها:

"... إن السوريّين ليسوا بعرب؟؟ وأن اللغة العربية التي يتكلمون بها اضطرهم الفاتحون إلى استعمالها بدلاً من اللغتين، الأرامية الوطنية واليونانية، اللتين كانتا اللسان الشائع في البلاد السورية"!!

وقد وقع على المذكرة كل من: الدكتور أيوب ثابت، جبران خليل جبران، ميخائل نعيمة، نسيب عريضة، عبد المسيح حداد، وديع باحوط، وليام كاتسفليس"[1].

وللأسف، فإن أحمد زكي أبو شادي، الذي هاجر إلى أمريكا، انضم إلى المحافل الماسونية، وكان من ثمار ذلك تشجيعه على نشر الإباحية، وطبق ذلك عملياً من خلال بعض

---

[1] عبدالكريم الأشتر: النثر المهجري، ط٣، دار مكتبة الفكر، طرابلس الغرب، ١٩٧٠م، ص٣٤، وانظر: جمال سلطان، أدب الردة: قصة الشعر الحديث، مركز الدراسات الإسلامية ، برمنجهام، بريطانيا، ١٩٩٢م، ص١٤٠، وما بعدها.

قصائده، التي نشرها في مجلته "أبوللو" ونشر بجوارها صوراً عارية[٢]!

ولاشك إن الانسلاخ من العروبة واللغة العربية التي هي أداة الأدب العربي، يعبر عن موقف خياني بل عدواني، يعني رفض الإسلام والثقافة الإسلامية، مع أن كتاباتهم، تتحدث كثيراً أو قليلاً عن التسامح والأخوة الإنسانية، ولكن المسألة كما رأينا في رسالة أصحاب المحفل الماسوني تشير إلى دلالات عميقة، ذات مغزى يفهمه أبسط البسطاء!

بديل غير إسلامي:

ولعل موقف أصحاب المحفل هذا، وهم من غير المسلمين في جملتهم، يفسّر لنا سرّ اجتهاد نظرائهم في مصر ولبنان، لمحو التصور الإسلامي من الأدب العربي، وإحلال البديل غير المسلم مكانه، ويمكن أن نرى ذلك واضحاً في كتابات سلامه موسى، ولويس شيخو، ولويس عوض، وسعيد عقل، وغالي شكري، وجبرا إبراهيم جبرا، وإيليا حاوي، وإدوارد الخراط، ورءوف مسعد، ونعيم تكلا، وغيرهم، ويكفي أن يمتلئ شعرهم العربي، بل ورواياتهم، بالرموز والتصورات غير الإسلامية.. فالرموز الإنجيلية مثل الصلب والفداء والخطيئة والجلجلة والمذبح والأيقونة وبيض النعام وغيرها، موجودة في كتاباتهم

(٢) راجع أدب الردة، واقرأ حول الماسونية وواجهاتها الجديدة، كتاباً قيماً لمحمد عبد الله عنان، بعنوان: تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩١م، وانظر الموسوعة في الميسرة الأديان والمذاهب المعاصرة، الصادرة عن الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م، صفحات ٢٤١، ٤٢٩، ٤٤٧، وما بعدها.

بكثافة ملحوظة، وامتدت إلى العديد من الشعراء المسلمين من أمثال: السياب وأدونيس والبياتي والماغوط ومحمود درويش.

وقد ناقش العلامة الراحل محمود محمد شاكر، هذه الظاهرة، وغاص في أسبابها وأبعادها ونتائجها على نحو مفصل، شرحه في كتابه "أباطيل وأسمار" وربطها بالدعوة إلى العامية، والقومية الضيقة، بقصد تفكيك أوصال الأمة العربية، من خلال "حرب أدبية" ، وهي في الحقيقة ليست مجردة من العوامل السياسية والدينية[1].

لقد استطاع هؤلاء الكتاب وأمثالهم أن يزرعوا السلوك المنحرف ببراعة، وأن يشوّهوا صورة الأسرة المسلمة، والشخصية المسلمة بالإلحاح على النماذج المنحرفة واختلاقها في أحيان كثيرة، وإشاعتها، وتقديمها على أنها صورة الواقع (مدرس اللغة العربية، والعلوم الإسلامية، المأذون، إمام المسجد، المؤذن، بقية الشخصيات التي يرتبط شكلها وسلوكها بالإسلام).

والشيء نفسه، فعلوه في المسرح، وكانت مساحة الإساءة إلى الشخصيات الإسلامية كبيرة للغاية، لقد ربطوا المسرح بالنوادي الليلية والفئة المستهترة المتعهرة حتى ليكاد المسرح يكون فناً مصادماً للإسلام في معظم جوانبه.

---

[1] محمود محمد شاكر، أباطيل وأسمار، ج١، مكتبة دار العروبة، القاهرة، د.ت (اقرأ المقالة العاشرة، ص٢٥٩ وما بعدها) والكتاب كان مقالات مطولة نشرتها "الرسالة" في إصدارها الثاني عام ١٩٦٤م وما بعده.

إن هؤلاء الأدباء غير المسلمين، تمكنوا بأساليب فنية بارعة تخفى على القارئ العادي من إشاعة قيم مضادة للإسلام، وزرعوا مفهومات ورموزاً كثيرة غير إسلامية في الشعر والقصة والمسرحية على حد سواء... [1].

وهو ما امتد إلى أجيال جديدة راهنة، صارت ترى في التجديف والإباحية والعبثية والاستهانة باللغة والتقاليد الأدبية والفنية أمراً طبيعياً وعادياً.

تأثير المستشرقين:

إن الانبهار بالمناهج الغربية، وتقديس ما يقوله المستشرقون عن أدبنا وعقيدتنا، أبعد أجيالاً من الأدباء عن الالتفات إلى تراثهم وعقيدتهم والكنوز التي يملكونها ولا يعرفون عنها شيئاً، وكثيراً ما نجد العديد من أدبائنا يتحدثون عن النقاد والأجانب والمستشرقين الأوربيين بحب غامر وخشوع كامل، تصوراً منهم أن أمتهم ليس لديها شيء يغنيها في الأدب ولا في غيرها، وعندما تحكمت الأغلبية من أدبائنا الذين لديهم عداوة غير مفهومة مع الإسلام، في مقدرات الثقافة والفكر والإعلام والأدب، عبر المؤسسات الرسمية، فإنهم أشاعوا حالة من "التقديس" لكل من يأتون من الغرب، حتى لو كانوا نقاداً أو مستشرقين من متواضعي القيمة والمستوى ، وصرنا نسمع مثلاً في مناسبات ثقافية (مؤتمرات، معارض كتب، ندوات...) عن استضافة (فلان) العالمي! سواء كان كاتباً أو شاعراً أو مستشرقاً، وصار ما يقوله هذا (الفلان)

---

[1] عبد الباسط بدر، مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي، ص٩٥-٩٧.

من المحفوظات المقدسة التي يجب أن يصدقها الجميع، ولا يعارضها أو يناقشها أحد!

ويشير "علي الغزيوي" إلى استهلاكنا للمناهج الغربية بعيداً عن فكرنا وتربيتنا.. نقحمها في دراساتنا وننظر من خلالها إلى أدبنا خاصة وتراثنا عامة، وتأثر الدارسون من الأجيال المتعاقبة التي تلقت العلم في ديار العرب، وقاموا على نشر تلك المناهج وترسيخ أصولها في أذهان الناشئة الذين يتخرجون فوجاً تلو آخر.. اقتناعاً بأن الأمة العربية الإسلامية لا حظ لها من المناهج.

لقد أسهم المستشرقون في ذلك إلى حد كبير عن طريق ما بثوه من أوهام ومزاعم صرفت أنظارنا عن المناهج الإسلامية بطريقة مباشرة حيناً، وغير مباشرة في حين آخر، أو تقديم نماذج رديئة للتأكيد على ضعف المناهج عند العرب. مثال ذلك ما فعله المستشرق "فرانتز روزنتال" الذي خلط بين المنهج بمفهومه العلمي الصحيح، وبين آداب البحث وسلوك العالم والمتعلم في كتابه "مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي" الذي ترجمه: أنيس فريحة، وراجعه: وليد عرفات، وصدر عن دار الثقافة في بيروت لأول مرة عام ١٩٦١م، وتكرر إصداره في طبعات جديدة بعد ذلك.

وقد تصدت له "عائشة عبد الرحمن" - بنت الشاطئ (رحمها الله)- في دراستها المنهج النقلي عند علماء المسلمين[1].

ولاشك أن تأثير المستشرقين -مع أن بعضهم قد قدم لنا خدمة جليلة، ولو عن طريق السلب بإيقاظنا من غفلتنا لنرد عليه ونصحح ما يقول- كان كبيراً في محيط النخبة المثقفة التي لم تلتفت إلى تراثها، فتابعتهم على طول الخط، ونقلت عنهم تصوراتهم ومفاهيمهم -وهي غير إسلامية بالضرورة- وللإنصاف فإن بعض هذه النخب حين اطلع على تراث أمته، تراجع وأعلن عن خطئه، ولعل "محمد حسين هيكل" أبرز هؤلاء، فقد ظل يدعو إلى أدب قومي ينطلق من التاريخ الفرعوني، ولكنه عدل عن ذلك فيما بعد، ويمكن أيضاً أن نرى في تراجع "طه حسين" عما كتبه في "الشعر الجاهلي" وتعديله إلى "الأدب الجاهلي" اعترافاً ضمنياً بخطئه في استسلامه لمنهج الشك.

لكن هناك فريقاً، واصل استسلامه للمستشرقين (وبعضهم كان يخدم في مجال التنصير والاستعمار) وردد مقولاتهم، ودعا إليها بحرارة، وخاصة في مجال استخدام العاميات بدلاً من الفصحى.

---

[1] انظر: مجلة الباحث، المغرب، السنة الثالثة، المجلد الثالث، ١٩٧٤م، ص٥-٢١، وانظر أيضاً: علي الغزيوي، مدخل إلى المنهج الإسلامي في النقد الأدبي (التأسيس) كتاب دعوة الحق، المغرب، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م، ١٢٣-١١٤.

وقد كان للمذاهب الأدبية الأوربية الحديثة صداها الذي لاشك فيه قوة تأثيره على أدبنا المعاصر، بدءاً من الكلاسيكية حتى ما بعد الحداثة والعولمة.

وهنا ينبغي أن نفرّق بين التأثر الواعي الذي يدرك العناصر المفيدة التي تصلح لتربتنا العربية وتتفق مع لغتنا، وبين العناصر التي لا تنبت إلا في بيئتها التي جاءت منها.

ونسجّل أن مدرسة الديوان مثلاً حين تعاملت مع النظريات الأدبية الغربية، كانت أفضل من المدارس التي جاءت بعدها، وخاصة في العقود الأخيرة، فقد عمدت المدرسة التي كان العقاد وشكري والمازني، يشكّلون، روادها إلى ما يمكن تسميته بالهضم والتمثيل والاختيار، واستطاعت بفضل النظرة الواعية أن تقدم لشعرنا الحديث ما عرف بالتجربة الشعرية والوحدة العضوية واللغة المتجددة.

أما غيرهم فقد كان -في الغالب- مقلداً تقليداً أعمى لأدب الغرب ونظرياته، في الشكل والمضمون معاً، حتى رأينا أدباً عربياً لا هوية له ولا روح، وصرنا كالغراب الذي أراد أن يجعل من نفسه طاووساً فنتف ريشه وحاول وضعه على جلده فلم يستطع فلا هو صار طاووساً ولا ظل غراباً.

بل إن بعض المتأثرين بالأدب الغربي في النصف الثاني من القرن العشرين حولوا الأدب العربي إلى دعوات فاجرة وهجوم شرس على العقيدة الإسلامية وتراثها، وبذلوا جهداً دموياً لتأصيل القيم الغربية في الفن والحياة.. ولم يقتصر التأثير على استعارة الأدوات الفنية، بل امتدت إلى الخلفيات

الفكرية والفلسفية التي تصدر عنها المذاهب الأدبية الغربية، لدرجة أن العقيدة الدينية التي هزمت في أوربة وعزلت عن الحياة، وجدت طريقها إلى شعراء مسلمين مثل صلاح عبد الصبور وبدر شاكر السياب، فضلاً عن شعراء النصارى، أمثال يوسف الخال، وخليل حاوي، وتوفيق صايغ، ولويس عوض، وغالي شكري، وإدوارد الخياط، ونبيل نعوم، ورءوف مسعد.. وترك الأمر آثاراً كبيرة في مقدمتها تفشي الرموز التوارتية, والإنجيلية -كما سبقت الإشارة- في الشعر والقصص على السواء، بل إن إحدى الروايات التي كتبها روائي مسلم، تم استيحاؤها كاملة من التوراة والإنجيل[1].

ولاشك أن الماركسية والوجودية والسيريالية، كان لها الوجود الأبرز في معظم الكتابات الأدبية التي ظهرت في العقود الأخيرة. ازدهرت الماركسية في الخمسينيات من خلال مذهب الواقعية الاشتراكية، وكان لأدبائها الذين هيمنوا على أجهزة النشر والتوصيل على مدى عقدين في عهد جمال عبد الناصر، في مصر، أثر كبير في نشر المذهب الذي تجاهل العقيدة، بل هاجمها وأزرى برموزها, وقلّل من قيمة الفصحى لحساب العامية، وكاد إنتاج أدبائه يتحول إلى منشورات ماركسية بعيدة عن لغة الفن، ومع ذلك كان هناك من يحتفي به ويروج له عبر الوسائط الدعائية والصحف والمجلات ويجعل من كتابه

(١) انظر: عبد الباسط بدر، مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي، ص٥٦-٥٧، وانظر ما كتبه "رءوف مسعد" عن رواية "تركي الحمد" المسماة: شرق الوادي، وإعجابه الذي وصل إلى حد الانبهار باستيحاء الكاتب للتوراة والإنجيل في أحداث الرواية وشخوصها، وانظر أيضاً رواية "ريح الجنة" للكاتب المذكور.

وشعرائه نجوماً للأدب والثقافة، ويعتم على غيرهم من الأدباء الإسلاميين، ويقصيهم، بل يسخر من إبداعاتهم.

إباحية.. وعبث.. ووثنية:

وقد أشار العديد من النقاد والدراسين إلى ما حفلت به أعمال الماركسيين والوجوديين وأشباههم ممن يحتقرون الإسلام ويزدرونه إلى أعمال وصلت إلى الحضيض في إباحيتها، وتصويرها للإباحية على أنها تعبير عن العواطف الإنسانية الرقيقة في خداع مكشوف يحلل التفسخ ويسوّغ الانحراف في نفوس القراء وخاصة المزاهقين، ووصل الأمر ببعضهم إلى مهاجمة الإسلام صراحة، وجعله مرادفاً للتخلف والرجعية والجمود وهناك من وقف عند العبث بالمفهومات الدينية، والاستخفاف بمقام الأولوهية، والتطاول على الذات الإلهية في وقاحة غير مسبوقة، وتصوير القدر على أنه ظلم محض يعاند الرغبات البشرية المشروعة ويحبس لحظات السعادة عن البشر، وتصوير الإنسان في مقابل القدر، على أنه البطل المغامر الذي يتحدى سلطان القدر فينتصر عليه ويحقق أغراضه أو يهزم أمامه، ولكنه ينهزم بشرف يدين انتصاره.

إنها تصورات مهزوزة مستمدة في معظمها من التصورات الوثنية الإغريقية[1].

الحداثة:

---

[1] عبد الباسط بدر، مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي، ص٥٧-٥٩، وقد استفزت بعض الروايات والمسرحيات ناقداً ماركسياً شهيراً مثل "محمد مندور" حيث انتقد الإباحية والفحش الذي حفلت به بعض الأعمال مثل: مسرحية "أوديب الملك" لتوفيق الحكيم، "بين القصرين" لنجيب محفوظ، و"لعبة الحب" لرشاد رشدي، "واللحظة الحرجة" ليوسف إدريس، وقد تعرض لردود فعل عنيفة بسبب موقفه الخلقي.

ولعل أخطر ما أصيب به الأدب العربي الحديث، هو ما اصطلح على تسميته بـ"الحداثة" والحداثة مصطلح مراوغ يحمل أكثر من معنى، وقد استخدمه كثيرون بمعنى التجديد أو التحديث، وهذا المعنى لا يختلف عليه أحد، لأنه يصب في خانة التطور الطبيعي للحياة والأحياء، ولكن المعنى الآخر الذي استخدمه آخرون بخبث ومكر، هو المعنى الأوربي الذي يعني الانقطاع، وفصل القيمة عن السلوك والإنسان، وإلغاء الماضي عقيدة وتاريخاً وتراثاً وعادات وتقاليد، وصناعة مجتمع "الغاية فيه تبرر الوسيلة"، وهو ما ارتبط بالاستعمار الغربي، الذي ضرب الحائط بكل القيم والأخلاق والقوانين الإنسانية، واستباح الشعوب الضعيفة، ومنها الشعوب الإسلامية، ونهب خيراتها وكنوزها تحت مسمى "الحداثة" أو نقلها من التخلف إلى التقدم(٢).

وقد وجدت الحداثة لها أنصاراً وأتباعاً في بلادنا العربية، من الأدباء والشعراء الذين صارت لهم شهرة داوية، وراحوا يلتفون حول الثوابت العقدية والفكرية في الإسلام بخبث ودهاء، ويقدمون أدباً لا يرعى حرمة لمقدسات، ولا يحافظ على قيمة خلقية أو إنسانية، ولا يضع في حسبانه مستقبل أمة إسلامية قوية، وقد حفلت نصوصهم بالتجديف والإباحية واستيحاء الرموز الوثنية وغير الإسلامية على النحو الذي سبقت الإشارة إليه.

(٢) أدونيس، الآثار الكاملة، ج٢، ط٢، دار العودة ببيروت، ١٩٧١م، ص١٤ وما بعدها، وانظر: جمال سلطان، قصة الردة في الشعر الحديث، ص١١٨.

ومع ذلك، فقد كانوا يقدمون أدبهم باسم التجديد والتطوير، ثم "الحداثة" التي أسفرت عن وجهها الحقيقي في مقولاتهم وأدبياتهم التي نشرت على الناس، خاصة وأنهم استقطبوا أعداداً كبيرة من الشباب المتحمس الذي لديه جلد على التقاليد الأدبية والقيم الفنية، فسهلوا له نشر ما يكتبه دون حسبان لقواعد اللغة أو العروض أو القافية أو البناء الفني للقصة أو المسرحية.. بل إنهم أسقطوا منطق العلاقات اللغوية تماماً، فأخذنا نقرأ وخاصة في العقدين الأخيرين ، كلاماً مبهماً غامضاً لا نستطيع أن نستخرج منه دلالة معينة أو واضحة، فضلاً عن ظهور أجناس هجينة، تحمل مسمى "قصيدة النثر" و"عبر النوعية" وغيرها، وهي أجناس لا قواعد ولا قانون.

رفض الإسلام:

ولوحظ أن "الحداثة" في العالم العربي، لم تنفض عن كاملها الدين -أي دين- ولكنها نفضت "الإسلام"، أي إنها موجهة إلى الإسلام دون بقية الشرائع، فعرّاب الحداثة "أدونيس" مثلاً، تجد في شعره ألفاظ الصلب والصليب والقداس والمسيح والفداء والخطيئة والعمادة... الخ.

"صارت لي الكئوس والأكمام
وسادة... حلماً على الوسادة
من زمن الولادة
في غابة الرضاع والفطام
اثقل أجراساً في الليل إلى كنيسة النهار

النسغ قداس بين الطلع والثمار
والورق والعمادة[1].

وفي شعر "محمد الماغوط" شيء من هذه الألفاظ التي تصل إلى حد التكلف "الفجّ":

اشتهي أن أكون صفصافة خضراء قرب الكنيسة
أو صليباً من الذهب على صدر عذراء
تقلي السمك لحبيبها العائد من المقهى[2]

لقد ركز الحداثيون العرب الذين يتعاملون مع الأدب العربي بمفهوم الحداثة الأوربي على نفي الدين من الحياة، والانقطاع عن التراث العربي، وهدم القديم جملة وتفصيلاً وكان من المثير للأسف في هذا المجال، أن الشاعر الناقد البريطاني المعروف "ستيفن سبندر" تعجب عندما سمع كلمة "أدونيس" في مؤتمر "الأدب العربي المعاصر" الذي انعقد في "روما" أوائل الستينات، ودعا فيه إلى "هدم القديم"، فوصفه بالتطرف، واعطى له "درساً" حضارياً، بما صنعه الشاعران الكبيران

---

(١) المرجع السابق.

(٢) محمد الماغوط، الآثار الكاملة، دار العودة بيروت، ١٩٨١م، ص٢٦، ويمكن للقارئ أن يجد نصوصاً أخرى كثيرة في أشعار أدونيس، وعبد الوهاب البياتي، والماغوط، وأنسى الحاج،ومحمود درويش، وبلند الحيدري، وعبد العزيز المقالح، وغيرهم، تتناول الذات الإلهية بما لا أستطيع نقله هنا حرصاً على مشاعر القرّاء، ودواوينهم ومجموعاتهم الشعرية مليئة بالتجديف والإباحية، وقد علق عليها عدد من النقاد واستنكروها، ومنهم على سبيل المثال: عبد الباسط بدر، مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي، ص٦٠-٦٥، وحسين علي محمد، القرآن... ونظرية الفن، ٥٠-٧٦، وجمال سلطان، أدب الردة قصة الشعر الحديث، ص١١٨-١٣٩، ومجلة الرسالة (الإصدار الثاني، العدد ١١١٠، ٢٢ من إبريل ١٩٦٥م، ص٤١٤، وما قبله من أعداد).

"إليوت" و"ماثيو آرنولد" وهما من أكبر شعراء هذا العصر، وفي الوقت نفسه ناقدان أصيلان لم يهملا التراث الشعري القديم، بل هضماء هضماً، وأبقيا منه ما هو جدير بالبقاء ، ثم زادوا عليه، فجاء الشعر عندهما مبنياً على أسس متينة وجذور عميقة، وانتهى الناقد الإنجليزي إلى وصف منحى "أدونيس" و"يوسف الخال" بالتطرف والضياع وعدم الواقعية[1].

اعترافات الحداثيين:

وواضح أن المقصد الأساس لدى دعاة "الحداثة" العربية هو إقصاء الثقافة الإسلامية، والتصور الإسلامي الصحيح، لحساب الثقافة الغربية، ونجد اعترافاً واضحاً لا يقبل اللبس في كتابات بعضهم. فمثلاً ترى خالدة سعيد (وهي بالمناسبة زوج أدونيس)؛ أن اتجاهات التجديد الأدبي بدأت في أحضان "العلمنة" أي النظر العلماني أو الدنيوي (غير الديني) إلى التاريخ، وهذا هو تفسيرها بألفاظنا أو النظر التطوري، على أيدي أشخاص، مثل: فرح أنطون، وشبلي شميل، وقاسم أمين، وطه حسين, ولطفي السيد، وجميل صدقي الزهاوي، وأحمد زكي أبو شادي، مما يعني في النهاية أن دراسة الظاهرة الأدبية من المنظور الأدبي المحض، ليس كافياً، فلابد من حضور الظواهر الاجتماعية والسياسية والفنية والأدبية المحيطة بها جميعاً،

---

(1) أعمال مؤتمر "روما" الأدب العربي المعاصر، إشراف سيمون جارجي، منشورات أضواء، تشرين أول ١٩٦١م، د.ت، ص١٩٢-١٩٤، وانظر: جمال سلطان، قصة الردة في الشعر الحديث، ص٨٧.

وهو ما يؤكد في النهاية أن المسألة صراع حضاري شامل تطال شظاياه كافة المقومات الإنسانية والمادية في المجتمع[٢].

وقد أكد هذا "أدونيس"، حين رأى أن الارتباط بين الشعر والقاعدة الحضارية ارتباط حميمي يؤسس له شعراء الحداثة، فهم يلحون على تغيير "الرؤية" أو القاعدة الحضارية بوصفه حتمية لحركة الشعر الحديث، كي تستطيع أن تجد طريقها إلى القارئ "لأنه من الصعب أن يتغير لدى القارئ منظوره الشعري إلا إذا تغير منظوره الثقافي بأكمله"[٣].

وتغيير المنظور الثقافي الإسلامي، هو غاية حركة الحداثة، التي تجاوزها الغربيون أنفسهم إلى ما بعد الحداثة، والعولمة، ثم باتت -أخيراً- العقيدة الدينية (الكاثوليكية أو البروتستانتية) تحركهم مرة أخرى في تعاملهم معنا نحن المسلمين، ومع العالم كله.

وقد تنبه مصطفى صادق الرافعي -رحمه الله- منذ زمان بعيد، وربما قبل أن يولد "أدونيس" على غايات ما سمي بتجديد الأدب العربي الخفية، حين وضع على غلاف كتابه "المعركة بين القديم والجديد- تحت راية القرآن"، أن التجديد انحصر في الفسق والإلحاد، أو تقليد الفسق والإلحاد" وأن الشرط الأول

(٢) خالدة سعيد، حركية الإبداع: دراسة في الأدب العربي الحديث، ط٢، دار العودة بيروت، ١٩٨٢م، ص١٢، وانظر: جمال سلطان، قصة الردة في الشعر الحديث، ص١٢٥ وما بعدها.

(٣) أدونيس، الثابت والمتحول- صدمة الحداثة، ط٤، دار العودة بيروت، ١٩٨٣م، ص٢٧٢ وما بعدها.

للمجدد في زمانه، أن لا تكون ذا دين، أو لا يكون فيك من الدين إلا اسمك؟! [1].

ويمكن القول في النهاية بإيجاز شديد، إن غاية حركات التجديد الهدامة، وليس التجديد الذي يضيف ويثري، تنحصر في عدة نقاط، رصدها حسين علي محمد، تحت عنوان "ملامح الحرام في الفن"، وهي:

١. بلبلة التصور الإسلامي.
٢. نشر الفساد في الأرض.
٣. تزيين الرذيلة.
٤. إتباع الهوى.
٥. وثنية التصور.
٦. الاستدعاء السلبي للأنبياء والرموز المقدسة.
٧. فساد الرؤية/فساد التصور[2].

تمويل أجنبي:

بقيت الإشارة إلى أن حركة "تغريب" الأدب العربي الحديثة، كانت تقف وراءها جهود أجنبية مشتبه بها، وكانت هناك مجلات مثل: شعر، أدب، حوار، وغيرها، تمولها منظمات عالمية بدعوى حرية الثقافة، وقد صدر في السنوات الأخيرة كتاب يُعد "قنبلة" حقيقة في كشف كثير من الأسرار التي قامت

---

[1] مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٦٣م، ص٢٠٠.

[2] حسين علي محمد، القرآن... ونظرية الفن، ص٥٠، وما بعدها.

بها المخابرات المركزية الأميريكية في تشجيع التمرد على الثقافة المحلية في كثير من بلدان العالم، وفي مقدمتها الثقافة الإسلامية، من خلال مجلات مثل التي أشرنا إليها قبل قليل، وحركات ومذاهب فنية وأدبية تدور في فلك العبث أو اللامعقول أو التجريد، وقد صدر الكتاب عن المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة تحت عنوان "الحرب الثقافية الباردة" لمؤلفته "فرانسيس ستوز سوندرز"- وكانت تعمل في جهاز المخابرات المركزية، وترجم الكتاب طلعت الشايب، وقدم له عاصم الدسوقي، وصدر تحت رقم ٢٧٩ عام ٢٠٠٠م ضمن المشروع القومي للترجمة.

٢- حاجتنا إلى مذهب أدبي يقوم على أساس العقيدة

يروي نجيب الكيلاني القصة الحقيقة التالية:

"في وقت الاحتضار، تلفت الفيلسوف الفرنسي الأشهر "جان بول سارتر" حوله في قلق وحيرة.

قالوا له:

- أتريد شيئاً؟

وفغروا أفواههم في دهشة عندما سمعوه يقول:

-أريد قسيساً.

انزعجت رفيقته الشهيرة "سيمون دي بوافور"، وقالت:

- معنى ذلك أنك تدمر فلسفتك!

- لم يلتفت إلى قولها، ولكنه استطرد:

-لا أريده من باريس.. بل من القرية.. أتفهمون؟

وأصر على طلبه في الالتقاء برجل الدين مع معارضهم واحتجاجهم[1].

ودلالة القصة لا تخفى على من عرف سيرة سارتر وتاريخه وتأسيسه للمذهب الوجودي، الذي لا يعترف بغير الإنسان وإرادته الذاتية وإلغاء ما وراء الطبيعة (الله، الوحي، الأنبياء، الكتب المقدسة، البعث...). وكان له أتباع في شتى أرجاء العالم، ومن بينه العالم العربي، وكان أتباعه في بلادنا ينتظرون كل كلمة تصدر عنه ويترجمونها إلى اللغة العربية ويحتفون بها، إيماناً منهم بالرجل ومكانته لديهم، إذا به يفاجئهم، بل يفاجئ أقرب أصدقائه ومنهم رفيقته "سيمون دي بوفوار" بطلب "قسيس" ليحضر وفاته، ويعترف إليه كما هي عادة المسيحي المؤمن بالله، ويصر على طلب "القسيس" من القرية وليس "المدينة" بوصف القروي أكثر إخلاصاً في تدينه ونقاء في سريرته.

فطرة طبيعية:

الدين أو الإيمان بالله، فطرة طبيعية في الإنسان، لا تطمسها النظريات الوضعية أو الفلسفات البشرية مهما بلغ أصحابها من شهرة وجاه وسطوة، وهو ما جرى مع "سارتر" وتناقلته الأنباء لتؤكد على تجذر العقيدة الدينية في وجدان البشر.

---

[1] نجيب الكيلاني، مدخل إلى الأدب الإسلامي، ص٧٢.

وإذا كان الأدب العربي، قد تأثر بالموجات الغربية المعادية للإسلام والعاملة على إزاحته من "القاعدة الحضارية" للأمة، وإحلال البديل الثقافي الغربي مكانه، فإن قصة "سارتر" وهو يحتضر، تقدم لهم دليلاً حياً على تهافت مسلكهم، وعقد محاولاتهم... فالأدب، أي أدب، لابد أن يرتكز على عقيدة ما، بل الإلحاد نفسه يعد عقيدة عند أصحابه، ولكن القوم في بلادنا لم يتعظوا بقصة سارتر أو غيره، ووصل بهم الأمر إلى حد المطالبة بالتبعية الكاملة لأوربة، والانسلاخ عن الثقافة الإسلامية (يسمونها الشرقية)، تأمل دعوات سلامة موسى مثلاً: وإصراره على نبذ اللغة العربية الفصحى، وإحلال العاميات مكانها، بل تمادى بعضهم ودعا إلى الكتابة بالحروف اللاتينية إقتداء بما فعله "مصطفى كمال أتاتورك" في تركيا، ثم جاء نفر ليكتبوا كلاماً أقرب إلى الهذيان والعبث، وهو ما جعل رجلاً في قامة "أحمد حسن الزيات" صاحب الرسالة، وكانت بنية الأدب العربي لما تزل أقرب إلى روح الإسلام يكتب قائلاً:"فأساليب الشباب اليوم هي أساليب الكتابة في الغرب، ومذاهب الأدب اليوم، هي مذاهب الأدب في الغرب، حتى الرمزية بنت الأفق القائم، والنفس المعقدة، واللسان المغمغم، يريدون أن تتبناها العربية بنت الصحراء المكشوفة، والشمس المشرقة، والطبع الصريح، وحتى الوجودية وليدة الخلق المنحل، والغريزة الحرة، يحاولون أن تتقبلها العربية, لغة الرسالة الإلهية، التي كرّمت الإنسان، وفضلته عن الحيوان

بحدود من الدين والخلق، لا يتعداها وهو عاقل، ولا يتحداها وهو مؤمن[1].

حركة دفع:

ولعل ما بسطناه من تأثيرات غريبة على الأدب العربي خاصة، والثقافة الإسلامية عامة، يجعل الدعوة إلى قيام أدب إسلامي مسألة ملحة وضرورية، لأنها ترتبط بالوجود العربي الإسلامي نفسه، وهذا الأدب ليس ترفاً أو أمراً زائداً عن الحاجة، بل هو أساس من أسس قيام النهضة الإسلامية الشاملة في الأقطار الإسلامية (عربية وغير عربية) جميعاً.

وإذا عرفنا أهمية الأدب عموماً في تكوين الوجدان وتغذيته وتأهيله للعلاقة مع النفس والغير، أدركنا ضرورة وجود أدب إسلامي يعبر عن روح العصر، ويعالج قضايا الإنسان المسلم، ويصور أشواقه، ويكون امتداد معاصراً للأدب الإسلامي على امتداد تاريخه منذ البعثة المحمدية حتى اليوم، مستفيداً من نماذجه المشرقة، بعيداً عن نماذجه المعتمة، مما يصل الماضي المضيء بالحاضر الواعد والمستقبل المأمول[2].

لقد كان الأدب الإسلامي في الماضي، حركة دافعة للمجتمع الإسلامي في كافة المجالات، وكان للأدباء شعراء وخطباء، ورواة، دورهم الذي لا ينكر في بناء الذاكرة الاجتماعية، والتحفيز للعمل والبناء ومقاومة الأعداء، ويرى أن

---

(1) أحمد حسن الزيات، وحي الرسالة، ج٣، ط٦، دار الثقافة، بيروت، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م، ص٢٠٩.

(2) عبد الرحمن رأفت الباشا، نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، ص٨٩.

"سعد بن أبي وقاص" جمع القراء في القادسية -المعركة المشهورة- ومعهم ذوو الرأي وأصحاب النجدة والمروءة، والشعراء، ومنهم: الشماخ والحطيئة وأوس بن مغراء وعبدة بن الطبيب، ودفع بهم إلى ساحات القتال، قائلاً: انطلقوا، فقوموا في الناس بما يحق عليكم ويحق لهم عند مواطن البأس.. إنكم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم، فسيروا في الأرض فذكروهم وحرّضوهم على القتال، فساروا فيهم[1].

وتوج سعد تلك الحملة الأدبية الرائعة بأن أمر أحد القراء بأن يقرأ في الناس سورة الجهاد (الأنفال)، وكان المسلمون كلهم يتعلمونها، فقرأها الكتيبة التي تليه، فقرئت في كل كتيبة، فهشّت قلوب الناس، وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها[2].

أمر طبيعي:

وإذا كانت الاتجاهات الفكرية والسياسية الكبرى، تتخذ من الأدب وسيلة لنشر مبادئها وتصوراتها كما فعلت الماركسية من خلال المذهب الواقعي الاشتراكي، وتفعل الرأسمالية من خلال المذاهب الأخرى (الواقعية النقدية، الرمزية، السيريالية، البرناسية، الحداثة، ما بعد الحداثة، العولمة...)، فإن المسلمين اليوم في حاجة ماسة إلى اعتماد مذهب أدبي خاص بهم، يعبّر عن هويتهم وثقافتهم وحضارتهم، ويؤسس للمنهج الإسلامي في الحياة والآخرة.

---

(1) الطبري ٣/٥٣٣.

(2) عبد الرحمن رأفت الباشا، نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، ص٨٦.

ولحسن الحظ، فإن الصحوة الإسلامية التي نبتت مع مطالع القرن العشرين في مواجهة الاستعمار، ومحاولة إحياء الأمة وإيقاظها، وسلطت الأضواء على الواقع الإسلامي وتاريخه ، ومستقبله أيضاً، قد جعلت من طرح نظرية للأدب الإسلامي أمراً طبيعياً، يستعيد دور الكلمة الإسلامية في الدفاع عن الأمة، والتوجيه لبناء مستقبلها، واستيعاب مشاعر المسلم تجاه نفسه والآخر والكون والطبيعة.

إن الكلمة سلاح لا يستهان به، هي طريق يوصل "كلمة الله" أو دعوة الإسلام إلى القلوب، ويغرسها في الأفئدة، ألم يقل ستالين عن الأدباء "إنهم مهندسو البشرية"[٣].

إهمال الأدب:

والمشكل أن نفراً من المهتمين بالحركة الإسلامية اليوم، لا يعير الأدب اهتماماً يذكر، وكثيراً ما تفتح الصحف الإسلامية، أو الدوريات الإسلامية فلا تجد للأدب مساحة تذكر. البعض يلغيها تماماً، والبعض يكتفي بصفحة أو صفحتين من مئات الصفحات، والبعض يكتفي بقصيدة شعر عبارة عن نظم جاف أجوف، يتفوق عليه النثر الفني في أغلب الأحيان، ونسي القوم دور القصة والرواية والمسرحية والملحمة وأدب الأطفال في رحلة الكلمة الإسلامية الإنسانية، وتوصيلها إلى الناس جميعاً مسلمين وغير مسلمين.

---

(٣) السابق، ٨٢-٨٣.

لقد استطاعت الحركات الفكرية غير الإسلامية في بلادنا العربية أن تصل إلى الناس من خلال "فن الكلمة" وجذبوا كثيراً من الأنصار والأتباع بوساطة التعبير الأدبي، وهو ما أهمله الإسلاميون ولم يدركوا أهميته إلا مؤخراً.

تجربة شخصية:

يحكي "محمد إقبال عروى" عن تجربة شخصية جرت معه بسبب أن بعض الناس يعدون الأدب من لغو الحديث ولا قيمة له. يقول إنه حضر ندوة حول رمضان في الشعر الإسلامي، وكانت ناجحة، وإذا بأحد الحاضرين يتدخل قائلاً، إن الأدب والشعر خصوصاً مجرد خرافة لا تقدمنا خطوة إلى الأمام، بل تسهم في تخلفنا، وما هو إلا أداة في يد البرجوازية تلهينا به، ونحن المسلمين، في حاجة إلى العلم والتكنولوجيا أكثر من حاجتنا إلى ذلك الأدب!!!

وقد ردّ عليه "عروى" بسؤالين يتلخصان كما يلي:

١- عندما يكبر أولادك ماذا ستدرس لهم من أدب؟ هل ستختار لهم روايات مثل عبير والسراب.. وبعض مؤلفيها تعاملوا مع الصهاينة وتعاطفوا معهم؟

٢- ما رأيك في الشخصيات العلمية التي احتلت مناصب علمية كبيرة، وعملت بالأدب مثل نجيب الكيلاني مثلاً؟ لما يهتم هؤلاء بالأدب ويكرس الواحد منهم جلّ وقته لقضاياه، لدرجة التفكير في التفرغ للأدب؟

وذكر "عروى" السائل بوصية أبي بكر الصديق لخالد بن الوليد -رضي الله عنهما- في إحدى المعارك عندما قال له: حاربهم بما حاربوك ، فإن حاربوك بالرماح فحاربهم بالرماح، وإن حاربوك بالسيف فحاربهم بالسيف.." وأضاف الشيخ القرضاوي" وإن حاربوك بالدولار فحاربهم بالدولار" وذلك في المشروع الخيري الذي طرحه ونضيف إلى ما سبق: "وإن حاربوك بالأدب فحاربهم بالأدب"[1].

وعلينا كما يقول "عبد الرحمن رأفت الباشا"، أن نواجه الأدب الذي لا نريد بالأدب الذي نريد، أي لابد من تقديم البديل الإسلامي، للأدب الغربي الذي لوثته المذاهب والأفكار الغربية وعبثت به[1].

ويذكر تاريخ الأدب أن من أوائل الذين دعوا إلى أدب تسوده روح الإسلام، مصطفى صادق الرافعي وأحمد حسن الزيات، ثم أبو الحسن الندوي، والشقيقان سيد قطب ومحمد قطب، وأنور الجندي، ونجيب الكيلاني، وعماد الدين خليل، ومقالات عديدة كتبها أصحابها في صور مختلفة تدعو إلى أدب نظيف يعبر عن قيمنا وأخلاقنا الإسلامية.. فقد أثمرت هذه الدعوات عن نتائج طيبة بلا ريب، منها:

---

(1) أحمد إقبال عروى،جماليات الأدب الإسلامي،المكتبة السلفية،الدار البيضاء، ١٩٨٦م،ص٢٦-٢٨.

(1) عبد الرحمن رأفت الباشا، نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، ص٨٩.

١- إقامة ندوات ومؤتمرات حول الأدب الإسلامي في مدن عربية وإسلامية.

٢- إضافة مادة "الأدب الإسلامي" إلى مقررات الدراسة في كليات اللغة العربية والمعلمين والبنات في عدد من جامعات الدول العربية والإسلامية.

٣- إنشاء رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وافتتاح مقرات لها فيما يقرب من عشر عواصم عربية وإسلامية.

٤-إصدار عدد من المجلات الفصلية والشهرية التي تعنى بالأدب الإسلامي وقضاياه بلغات مختلفة أهمها مجلة الأدب الإسلامي، التي تصدر باللغة العربية، وصدر منها حتى الآن أكثر من خمسين عدداً، ومجلة المشكاة التي تصدر في الدار البيضاء بالمغرب.

٥-مناقشة العديد من موضوعات الأدب الإسلامي في رسائل ماجستير ودكتوراه في جامعات عربية وإسلامية بدءاً من المغرب حتى إندونيسيا.

انبعاث حضاري ومسوغات واقعية:

لقد استوجب الانبعاث الحضاري أو الصحوة الإسلامية الحديثة، ضرورة التفكير والتنظير للأدب، وممارسته إبداعاً ونقداً، وإلا كان الانبعاث ناقصاً بوصف الأدب أبرز العناصر المشكّلة للحضارة الإسلامية، ولا يعيب ذلك أن جاء الحديث عن الأدب الإسلامي متأخراً عن بقية قضايا الفكر الإسلامي، وذلك لطبيعة الأدب التي تفرض نوعاً من التأني والتأمل والتودة.

كما أنه يبحث عن وسائل فنية جديدة لن يحققها في ظل الاهتزازات الفكرية والتحولات الاجتماعية المباشرة... بل لابد من زمن طويل، وهنا تكمن فرادة الأدب بوصفه أرقى النشاطات الإنسانية التي يتداخل فيها العاطفي بالفكري، والاجتماعي وغيرها من العناصر[1].

وقد أفرد "عبد الباسط بدر" صفحات عديدة في كتابه "مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي" يتحدث فيها عن مسوغات قيام نظرية أو مذهب أدبي إسلامي، يمكن أن نوجزها فيما يلي، لأنها تؤكد فعلاً على حاجتنا إلى أدب إسلامي ينبع من عقيدتنا الإسلامية وتصوراتها للخالق عزّ وجل وللإنسان وللكون.

١-تصحيح العلاقة بين الأدب والعقيدة، فقد أدى الارتباط الخطأ وفساد التصور إلى زيادة قلق الإنسان وزياد آلامه المضنية، وإذا أحسنا ربطه بالعقيدة الإسلامية صححنا مساره، وهيأنا له فرصة إبداع عظيمة.

٢-الانسجام بين العقيدة والحس الأدبي لدى الأديب المسلم، تقديم المفهوم الصحيح عن الأدب للأديب المسلم يساعده على تأهيل الحس الأدبي وشحذه، واستغلال أقصى طاقاته الممكنة، وتمنحه المقياس الذي يميز به الخطأ من الصواب ويصححه.

٣-إنصاف العقيدة الإسلامية، لأنها متهمة بعدم تشجيع الأدب المعتمد على الخيال الذي يعد "كذباً" لدى ضيقي الأفق، وكما

---

[1] أحمد إقبال عروى، جماليات الأدب الإسلامي، ص٢٢.

رأينا في موقف الإسلام من الأدب، فإن العقيدة الإسلامية تهيئ أرضاً خصبة للتجارب الأدبية وتذكي المشاعر وتكرم الأديب.

٤-حماية القيم الفنية في الأدب، حيث يؤكد الأدب الإسلامي على أهمية القيم الفنية ويجعلها أساساً له، وهو ما يسقط أصحاب المواهب الضحلة والقاصرين والضعفاء الذين يحتمون بالموضوع الإسلامي، ويقدمون نماذج هزيلة يحسبونها من الأدب الإسلامي، وهي ليست منه.

٥-حاجة عصرية ملحة؛ لمواجهة ما يجري للمسلمين من اجتياح عسكري واقتصادي وثقافي، تحت ستار العولمة، بعد أن كان واقعاً تحت استقطاب المعسكرين الشيوعي والرأسمالي، قبل سقوط الأول وتوحش الآخر، ومواكبة الصحوة الإسلامية وترشيدها، والتأكيد على قدرة الإسلام على إدارة الحياة في كل زمان ومكان، وفي شتى المجالات الاجتماعية والإنسانية[٢].

صعوبات في الطريق:

ولابد أن نشير في ختام البحث عن حاجتنا إلى مذهب إسلامي يحمينا من السقوط في متاهات الخوف والعزلة واليأس والكفر والوثنية القديمة والحديثة، ولا يجعل الموت كابوساً مزعجاً، ولا يدفعنا إلى الهروب من الحياة أوترك الجهاد الأعظم فيها، إلى بعض الصعوبات التي تعترض تحديد تصوّر صحيح للأدب الإسلامي ومنهجه ونقده، منها:

---

[٢] راجع عبد الباسط بدر، مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي، ص٤٤-٥٥.

١-بُعد مناهجنا الدراسية وخاصة في الثانوي والجامعي عن وجود نماذج من الأدب الإسلامي في كتب الدراسة المقررة، وإهمال الدراسة الفنية للقرآن الكريم في الشعب الأدبية أو التخصصات الأدبية.

٢-تغلغل المفاهيم والمناهج الأجنبية في أذهان الناشئة والشباب والمثقفين، أو في أذهان معظمهم في أحسن الأحوال. وترسيخ هذه المناهج وتلك المفاهيم بسبب نشاط وسائل الإعلام الأجنبية، بل والمحلية أحياناً بفضل هيمنتها وبريقها الجذاب وسرعة وصولها إلى المتلقين والدارسين[١].

وهو ما ينبغي مواجهته بالعمل الدءوب، وتقديم البدائل المقنعة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

[١] انظر: علي الغزيوي، مدخل إلى المنهج الإسلامي في النقد الأدبي (التأسيس)، ص٢٥.

المصادر والمراجع مرتبة حسب ورودها في البحث

١-عبد الباسط بدر، مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي، دار المنارة، جدة، السعودية ، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

٢-محمد قطب، منهج الفن الإسلامي، ط٦، دار الشروق، القاهرة، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٣-نجيب الكيلاني، الإسلامية والمذاهب الأدبية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

٤-عبد الكريم الأشتر ، النثر المهجري، ط٣، دار مكتبة الفكر، طرابلس الغرب، ١٩٧٠م.

٥-جمال سلطان، أدب الردة، قصة الشعر الحديث، مركز الدراسات الإسلامية، برمنجهام، بريطانيا، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

٦-محمد عبد الله عنان، تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩١م.

٧-الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

٨-محمود محمد شاكر، أباطيل وأسمار، ج١، مكتبة دار العروبة، القاهرة، بدون تاريخ.

٩- مجلة الباحث، المغرب.

١٠- على الغزيوي، مدخل إلى المنهج الإسلامي في النقد الأدبي (التأسيس) كتاب دعوة الحق، المغرب، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

١١- أدونيس، الثابت والمتحول، صدمة الحداثة، ط٤، دار العودة ، بيروت، ١٩٨٣م.

١٢- أدونيس،(علي أحمد سعيد)، الآثار الكاملة، دار العودة، بيروت، ١٩٨٣م.

١٣- محمد الماغوط، الآثار الكاملة، دار العودة، بيروت، ١٩٨١م.

١٤- مجلة الرسالة (الإصدار الثاني)، القاهرة.

١٥- حسين علي محمد، القرآن ونظرية الفن، ط٢، مطبعة أبناء وهبة حسان، القاهرة، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

١٦-خالدة سعيد، حركية الإبداع، دراسة في الأدب العربي الحديث، ط٢، دار العودة، بيروت، ١٩٨٢م.

١٧- مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٦٣م.

١٨- نجيب الكيلاني، مدخل إلى الأدب الإسلامي، كتاب الأمة، الدوحة، ١٤٠٧هـ.

١٩- أحمد حسن الزيات، وحي الرسالة، ج٣، ط٦، دار الثقافة، بيروت، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م.

٢٠- عبد الرحمن رأفت الباشا، نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

٢١- محمد إقبال عروى، جماليات الأدب الإسلامي، المكتبة السلفية، الدار البيضاء، ١٩٨٦م.